ثنائية الآنية والزمنية
في أعمال غوستاف غيوم(1)

بقلم اني بون (جامعة بروكسل)
ترجمة الحواس مسعودي (جامعة الجزائر)

1 - استعار غيوم(2) من سوسير المقابلة بين الآنية (la synchronie) (محور الحالات) والزمنية (la dia-chronie) (محور المتعاقبات)(3). فالزمنية(4) هي دراسة وقائع (faits) اللغة في المسار التاريخي، أي خارج إطار النظام (système)، بينما الآنية هي «اكتشاف واعادة بناء الأنظمة التي تندمج فيها وقائع اللغة باعتبارها أجزاء بنائية» (LL3 (5): 45). ولكن، كما سنرى، يتعجل غيوم في نقده هذه الثنائية ويعطيها بعدا جديدا.

2 - إذا كان غيوم لا ينكر فائدة النحو التاريخي والمقارن(6)، فإنه يشير مرارا إلى القصور والنقائص. والخلاصة العامة التي يمكن استنتاجها من هاتين

الطريقتين، التاريخية والمقارنة، هي أن «كل حالة للغة ما قد تم النظر فيها تعود أصلا إلى حالة سابقة لتلك اللغة، بحيث تعكس الاختلاف الحاصل على مستوى محوري الزمان والمكان» (LL6:3) . إن ملاحظة وقائع اللغة على مستوى محور المتعاقبات يعنى إذن بتفسير اللاحق من خلال السابق: «تجد الواقعة ق ن تفسيرها في الحالة السابقة ق ن - 1 التي تفسر بدورها حالة الواقعة:ق ن - 2 وهكذا (LL6:43) .

وبهذا يؤدي التفسير إلى معرفة سلسلة لا منتهية، كما في الرسم التالي:

ق ن ⟵ ق ن - 1 ⟵ ق ن - 2 ⟵ ق ن - 3 (وهكذا، دون توقف).

يمثل السهم الأعلى (⟵) الخاصية التعاقبية للظاهرة منذ نشأتها المجهولة، والسهم الأسفل (⟵) العودة التفسيرية لها. إن عيب هذا التفسير القائم على تتبع ما مضى من الزمان - وهو عيب لازم - يتمثل في كونه «يحيل التفسير باستمرار إلى تفسير جديد قد سبق ضمنيا، نظرا لكون كل سابق قد تم اكتشافه يوجد قبله من حيث الزمن سابق يفسره» (LL6:44) . بهذا يكون وجود أي واقعة لغوية في أي زمان مبررا من خلال وجود واقعة لغوية متقدمة. فالتفسير الحاصل هو، بعبارة أخرى، تفسير يحيل دوما على شيء سابق. حسب غوستاف غيوم، ليس هناك «تفسير بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولكن معاينة، وملاحظة متوالية من حالات واقعة ما ناتجة عن كون قسم كبير من مكونات اللغة خاضع لقانون التطور» (LL6:45) . حينما تفتقد الوثائق، يقوم مؤرخو اللغة بإعادة تركيب

الوقائع السابقة، وبهذا يبتعدون عن مجال الملاحظة البسيطة لينساقوا وراء تخمينات (spéculations) عشوائية. وكلما عدنا إلى الوراء صعودا في الزمن يصبح الماضي المعاد تركيبه أو بناؤه - المقابل للماضي المتأكد من بنائه - شيئا فشيئا مبنيا على الفرضيات والتخمينات.(7)

3 - من مآخذ غيوم على اللسانيات التاريخية أيضا أنها لم تخرج من الناحية التفسيرية عن محايثة اللغة (l'immanence de la langue) (LL6:46sv) . فهو يقابل هذه اللسانيات المحايثة باللسانيات الاستعلائية (transcendante) التي تبحث «عن التفسير في الانسان نفسه، وفي طبيعة العقل البشري» وذلك انطلاقا من «أن اللغة تأتي دوما من الانسان، مبدعها» (LL6:47) . حينما نفسر وضعا ما لنظام اللغة دون اللجوء إلى المعطيات التاريخية، فإن ذلك يعني أننا نقوم بتفسير استعلائي. إن غيوم يؤكد أنه باستطاعتنا مثلا «تقديم تفسير شامل ومرض للنظام الفعلي - الزمني للفرنسية دون الاستعانة بأية معلومة من مصدر تاريخي» (LL6:51) . لكنه يضيف بأن التفسير الاستعلائي حاله مثل حال التفسير المحايث (الذي هو تاريخي بحت) وذلك لأنه لا يقدم تفسيرا تاما: «إن مجرد التفسير بواسطة الاستعلاء لحالة نظام ما هو في حد ذاته تفسير مقبول: فهو ذاته النموذج الذي يسميه سوسير اللسانيات الآنية التي يشترط بقاؤها بالابتعاد المطلق عن معطيات اللسانيات الزمنية. ولكن إذا كان تفسير حالة نظام ما بواسطة الاستعلاء مرضيا فهو ليس تاما، وللمرور من التفسير المقبول - الاستعلائي وغير التاريخي - إلى التفسير التام، يجب حتما اتباع النهج الذي يمثله التاريخ المنتظم (systématique)، أو على وجه التحديد [...] تاريخ حالات

الأنظمة». (LL6:52-53) فعلى اللسانيات - إذا إرادت أن تكون علما كاملا - أن تجمع بين التفسيرن المحايث والاستعلائي.

4 - يرى غيوم في الأخير أن اللسانيات التاريخية والمقارنة تقع في الخطأ «نظرا للمبالغة في الوضعية (positivisme)»، وهذا ما يؤدي إلى عدم قدرتها على تجاوز حدود الأمر المعاين مباشرة ويبعدها عن التفكير النظري والمجرد. فاللسانيات التاريخية لا تهتم إلا بما يسميه غيوم «الملحوظ رقم 01» (LSL:244,n6)، أي بالخطاب وبظرفية (momentanéité) الأثر وإذا أرادت أن تكون علما كاملا، عليها أيضا أن تهتم بالوقائع الأقل وضوحا أي التي تنتمي لـ «الملحوظ رقم 2»، وهو اللغة وطاقتها الكامنة الدائمة. إن الطريقة الثانية تتميز بصعوبات أكثر من الأولى: «من زاوية تاريخية، يعتبر تتبع الوقائع بكيفية منعزلة أسهل من اعادة بناء النظام الكلي للغة ما، لمدة معينة، الأمر الذي يستلزم اكتشاف دور النسبية المتبادلة بين كل الوقائع المعاينة» (LL6:4) .

5 - بالنسبة لغيوم هناك نوعان متقابلان من الزمنية: الأولى، التي يعطي عنها النحو التاريخي التقليدي صورة كافية، وهي تعتبر تهديمية (déstructive) . بينما الثانية فهي بنائية (constructive) (LL9: 1-2) . بإمكاننا مثلا تقديم التصريف الفرنسي للأفعال من حيث هو تهديم لحالة قديمة، ولكن أيضا في الوقت ذاته من حيث هو بناء متزامن لنظام جديد. في اللغة يتم «البناء المنتظم بمعية اللابناء الذي ترثه اللغة من فترة لأخرى» (LL10:6) . إننا نجد أنفسنا أمام قوتين موجهتين بشكل متعاكس من ناحية وتلتقيان من ناحية أخرى. إحداهما «تنازلية»، غير منظَّمة، والأخرى «تصاعدية»، منظَّمة: «تنظر اللسانيات الزمنية للظواهر على نحو

تتبعي تاريخي عبر الزمن الذي يغيرها ويفسد نظامها ويخلطها ويهدمها دون أن تتدخل أية قوة منظّمة معاكسة. بينما تنظر إليه اللسانيات الآنية من الناحية العرضية (transversale)، وذلك ليس أثناء حركتها اللابنائية ولكن من حيث حركتها البنائية والانتظامية التي تحدد تبعيتها (interdépendance) وذلك بربطهما بأعمق قوانين الفكر البشري» (LL10:5) . يقترح غيوم الرسم التالي مقابل رسم سوسير التقليدي:

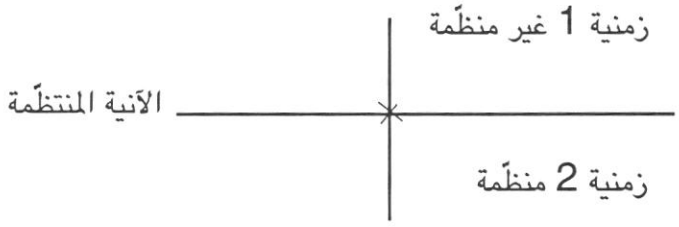

يظهر البناء المنتظم في نقطة التقاء القوتين المتضادتين وتوازنهما. هذا التوازن هو أساسا غير ثابت، لأننا «لا نجد أنفسنا إطلاقا أمام نظام، ولكن دائما أمام اصلاح ضمني للنظام المكتسب. غير أنه يمكن للنظام أن يثبت ويوصف كما لو كان ثابتا وذلك كما لو كان الاصلاح مستقرا» (LL10:7) .

6 - يوافق غيوم تمييز سوسير بين الآنية والزمنية ولكن بتحفظ: «تبقى هذه الرؤية العميقة [...] سطحية نوعا ما» (LL10:6) . فهو يشير إلى أن سوسير ركز على التمييز بين «الزمنية، التي تحتل المحور (الطولي) التتبعي التاريخي

(longitudinale) للمتعاقبات، والآنية التي تحتل المحور العرضي للحالة» و«هو لا يتوقف عند الحقيقة، رغم كونها أساسية، التي مفادها أن الحالات المنتظمة في حد ذاتها والمجردة تتغير على محور المتعاقبات (LL6:20)». إن الآنية في حقيقة الأمر وهم ليس مقبولا إلا لمقتضيات تحليلية: «لا توجد الآنية إلا من خلال الافتراض، المقبول جزافا، الذي مفاده أن ما هو مؤسس يدوم ولا يتغير ولا يخضع داخله لتغيير مستمر» (LL3:91) . يعترف غيوم بأنه «من الصعب جدا، بل من المستحيل أن نكون آنيين وآنيين فقط» (LL8:120) . فهو يصرح بأنه بدأ دراسة نظام الفرنسية من وجهة نظر سكونية - آنية - ولكن أدى به هذا الأمر في نهاية المطاف إلى أن يرى «أن هذا النظام يعمل بنظام سابق له ويعتبر تحويلا له» (LL6:20) . فقد أصبح - منذ أن بدت له الأمور من هذه الزاوية - «لسانيا لا يعمل بالآنية الا بهدف أن يتتبع - في الزمنية - عملية تكوين الأنظمة التي تثبتها الآنية» (المرجع السابق). لقد أدت به إذن دراسة الأنظمة على محور الحالات إلى محاولة دراسة تاريخ الأنظمة على محور المتعاقبات. النتيجة الحتمية هي أن «الطلاق بين الآنية والزمنية - إذا كانت المنهجية رصينة - هو حالة لا ينبغي أن تدوم، لأن الدراسة المعمقة لما يجري على محور الزمنية يؤدي إلى التعرف على آنيات في طور التكوين بحيث أنه من الضروري أن نأخذ صورا على محور الحالات الذي نضيف له تاريخيا - على محور المتعاقبات - صورا أخرى سابقة أو لاحقة» (LL6:22) يمكن أن نمثل لهذا بالرسم التالي:

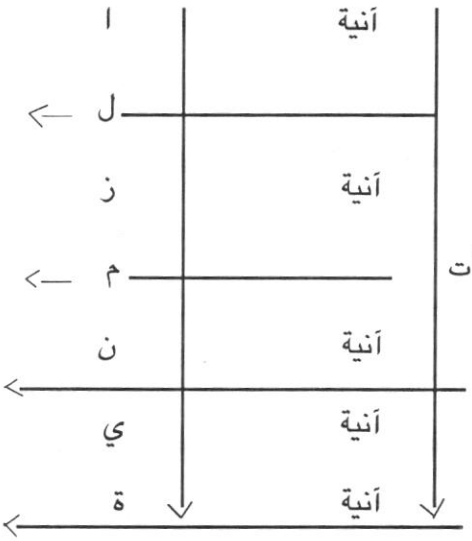

إن التاريخ الذي يدرس الأشكال بصفة فردية، أي الذي ينتمي للملحوظ رقم 1 (أنظر أعلاه)، لا يؤدي إلى معرفة التغير الذي مس النظام نفسه. فاللغة ليست نظاما فقط ولكنها نظام من الأنظمة.

ولكي يكون النحو التاريخي كاملا، عليه أن يتضمن جزءا متميزا يخصص لتاريخ الأنظمة، أي زمنية الآنيات. إذا وسعت اللسانيات نظرتها إلى أن تشمل تاريخ الأنظمة وتاريخ القدرات (المكنونات) الدائمة للغة، التي تنتمي للملحوظ رقم 2، يعني هذا «أن التمييز السوسيري بين الزمنية والآنية يفقد سبب وجوده» لأن «التفسير التاريخي كاف بالنسبة للكل» (n.6, LSL:244) . إن ما يطابق تاريخ الأنظمة هو تخصص خاص يسميه غيوم «علم النفس المنتظم» (la psycho-systématique) أو لسانيات الموقع (الرتبة). يبدأ علم النفس المنتظم في الآنية ولكنه يتطور في الزمنية.

وعليه فدراسة نظام اللغة لا يتوزع بين وجهتي النظر، الزمنية والآنية، ولكن بين ثلاث وجهات نظر (LL3:44-45):

1 - الزمنية كما يطبقها النحو التاريخي التقليدي:

«إن الوقائع، حينما تؤخذ واحدة واحدة وتختار بشكل اعتباطي، تكون لها توابع في تاريخ اللسان، دون أن نعير اهتماما لما سيحدث للنظام الذي تنتمي إليه». بعبارة أخرى، تدرس وقائع اللغة خارج النظام.

2 - الآنية حسب الاستعمال المقترح في «دروس في اللسانيات العامة» لسوسير. تتم ملاحظة مجموع الوقائع في الحال ويعاد تركيبها في شكل نظام.

3 - زمنية الحالات الآنية، أي ملاحظة الأنظمة وانتماءاتها(8) .

نظرا لكون غيوم يتمنى أن يتتبع النحو التاريخي تاريخ الأنظمة، فهو يعتبر نفسه «زمنيا ومؤرخا أكثر مما كان عليه فرديناند دي سوسير في السنوات الأخيرة». فهو بمعنى آخر مؤرخ أكثر من الأتباع المتحمسين للطريقة التاريخية» (LL10:11-12) وهو بهذا لم يحد من موضوعات الدراسة التاريخية بل أضاف لها موضوعا جديدا.

لاحظ م. ويلمات في الكتاب الذي خصصه لـ غوستاف غيوم ومدرسته اللغوية (1978) بأنه يبدو أن لا أحد فهم بأن غيوم كان منحازا إلى جانب الزمنيين ولكنه كان ينظر إلى اهتماماتهم العادية من زاوية مخالفة: «حينما يقف النحو التاريخي أمام اسم مستعمل دون أداة مثلا ويحاول البحث عن أسباب «الاهمال» (إهمال الأداة)، نرى غيوم - مع علمه بأن الأداة «صفر» تمثل القاعدة في الفرنسية القديمة - يهتم بالمقاصد التي يترجمها الاستعمال التدرجي لأدوات التعريف» (ص 92). كما يلح غيوم على التمييز بين وجهة النظر الاسترجاعية (rétrospectif) ووجهة النظر المستقبلية (prospectif) . فالأولى، المعمول بها في

النحو التاريخي التقليدي، تفسر اللاحق بالسابق، والثانية تسمح بتفسير السابق باللاحق، أي تبرير ما يسبق بما يلي. هي إذن «النور الذي يبدد ظلمات البداية» (LL6:58) ينظر أيضا PBA:45 و (LSL:166) . يتم انتهاج واحدة من وجهتي النظر وذلك حسب طبيعة الواقعة المراد تفسيرها. إن وجهة النظر الاسترجاعية كافية لتفسير التغيرات المادية والوقائع الصرفية، ولكن حينما يتعلق الأمر ببنية نظام ما فقد يصبح قلب التفسير أمرا مفروضا. وبالفعل فغالبا ما تظهر الأمور الأساسية عن طريق البناء النهائي للنظام.

7 - في مقال نشر سنة 1945، «مسألة الأداة. السبب الذي حال حتى الآن دون التعاون الوثيق بين اللسانيين المؤرخين والسانيين المنظرين» (أعيد ذكره في (LSL:157-166)، ينادي غيوم بتعاون وثيق بين مؤرخي اللغة والآنيين. بحيث ينبغي أن تتم الآبحاث على محورين:

1) - محور الاضافات (apports) التاريخية (المسار التكويني -ordre géné tique ،

2) - محور العلاقات المنتظمة (المسار الحركي ordre cinétique)، وهذه أيضا موضوعات خاضعة للتغيير والتجديد. بالنسبة لغيوم، لا يوجد في نهاية المطاف إلا الزمنية. فهو يعوض التمييز بين الزمنية والآنية برمنيتين: زمنية الاضافات التاريخية وزمنية العلاقات المنتظمة (LL3:91) . فمن ناحية الاضافات التاريخية، هناك إنتاج للمادة(9) تكوين منتج (genèse productive). ومن ناحية العلاقات المؤسسة في اللغة فيما بين الاضافات، هناك إنتاج شكلي (حركة منظّمة cinèse

organisatrice) ، فاللغة تولد من انتظامية العلاقات التي تنشأ بين الاضافات. حسب غيوم «يوزع الكلام، الذي ينظر إليه من زاوية استقلاليته باعتباره كلا، تكوينه (sa genèse) على المحور الحركي (cinétique) للاضافات وعلى المحور الثابت للعلاقات» (LL8:101) .

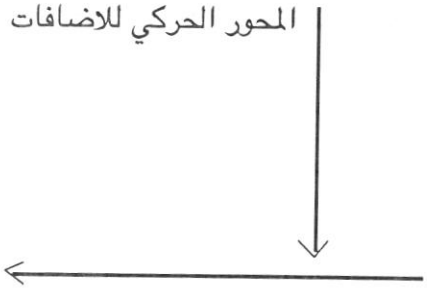

تعتبر اضافات التاريخ عارضة ومن قبيل الصدفة، بينما تعتبر العلاقات التي تنشأ مع هذه الاضافات عقلية وليست من قبيل الصدفة. فالمحور الساكن للعلاقات هو في الحقيقة «محور مصف» لا يحافظ إلا على الاضافات الضرورية ويدع الأخرى تخترقه وتختفي. لا تحتفظ اللغة من اضافات التاريخ إلا بتلك التي «تعتبر ضرورية لمقصدها البنائي الصرف، أي ببنائها الخاص بها، لأنها بناء، أي عمل مبني» (LL8:121)، في الأخير نحن لا نعرف من اللغة إلا ذلك النجاح المتواصل على محور الحالات.

كما رأينا أعلاه، يعيب غيوم على النحو التاريخي اهتمامه الخاص بالاضافات إذن بالفوضى وبالصدفة واهمال كل ما له صلة بالعلاقات المنتظمة القائمة بين الاضافات. فهو يجد في هذا سببا في كون النحو التاريخي لم يفسر في الحقيقة

شيئا يتعلق باللغة. ونظرا لكون هذه التفسيرات لم تخرج من إطار ملاحظة الاضافات، فهي لم تكن ذات فائدة تذكر (LL8:102) . وعليه فالنحو التاريخي يعلمنا أن الأداة الفرنسية le منحدرة من اسم اشارة لاتيني وأن الاداة un تعود للعدد الذي يعني الوحدة، ولكن رغم هذا لم يقل شيئا عن قيمة هذه الأداة التي تسبق الاسم وعن الدور الذي تلعبه وكذا الأسباب النفسية (ينظر التفسير المذكور في (LL8:102-105 & 121-122) .

إن غيوم يلح على كون العلاقة النهائية لا تعطي بالضرورة مسار ما هو مضاف. ولهذا فالأداة le، التي هي أسبق من الأداة un من الناحية التاريخية، تتبع هذه الأخيرة على الأقل في المسار التكويني l'ordre génétique: تبنى un على ضغط مخصص يسبق الضغط المعمم الذي تبنى عليه le (أنظر :LsL) 157-166، ليكن الرسم التالي (LsL: 162):

التتابع	الحالة الأولى	لاشيء	الضغط 2
التكويني	للنظام	..... (1)	(الأداة le)
التاريخي			
(الطولي)	الحالة الثانية	الضغط 1	الضغط 2
	للنظام:	(الأداة un)	(الأداة le)

التتابع الحركي الآني (العرضي)

cinétique

يرى غيوم أنه إذا كان علم اللسان (كما كان في عصره) قد أهمل أبحاث اللسانيات الوصفية فلأن الملاحظة التاريخية لتغير الوقائع المعنية بشكل منفصل أسهل من إعادة بناء نظام اللغة لمدة معينة.

من المفروض إذن أن يكون تاريخ الأنظمة - زمنية الآنيات - هو جوهر الأبحاث. بهذا المنظور لن تكون الأشكال الخاصة الخاضعة للتغيير هي المهمة، ولكن المهم هو العلاقات التي تنشأ بين هذه الأشكال. فالمؤرخ الحقيقي في نظر غيوم هو الذي يفهم من نظرة واحدة التغيرات الملموسة التي تمس الأشكال والتغيرات المجردة، وبشكل أقل تلك التي تمس الكائن المنتظم الذي ينشأ من تركيبهما حسب القوانين الثابتة للفكر البشري (PLT:11) .

الهوامش:

(1) - نشر هذا المقال في مجلة LANGUE FRANCAISE العدد 107 (سبتمبر 1995).

(2) - هذا المقال يعتمد أساسا على أعمال غوستاف غيوم المنشورة.

(3) - يفضل غيوم الكلام عن ontogénie (= الزمنية) و praxéogénie (= الآنية*، ينظر LL5:120 .

(4) - فيما يتعلق بالزمنية عند غيوم، أنظر ي. آدم وآليي (1988).

(5) - نجد قائمة لهذه الرموز في بداية المراجع.

(6) - فيما يتعلق بمآخذ غيوم على النحو التاريخي والمقارن، ينظر أيضا ي. آدم وآليي (1988).

(7) - يذكر غيوم اللساني الفرنسي «كوني» الذي لا يتحرج في البحث عن وقائع اللغة التي سبقت الوقائع المسترجعة وغير المثبتة للغة الهند و - أوربية المشتركة واللغة الحامية السامية المشتركة» (LL6:45)

(8) - مثلما يذكر ي. أدم وآليي (1988: 216-217)، الأمثلة حول تاريخ الأنظمة قليلة عند غيوم. يذكران على سبيل المثال التاريخ المنتظم لفئة العدد والأداة.

(9) - يؤكد غيوم أن معطيات التاريخ منها ما هو ذو طابع نفسي ومنها ما هو ذو طابع دلائلي (sémiologique) (LLI: 260-263) . فهو يذكر أن «التاريخ النفسي كله في حاجة إلي كتابة» و«أنه سيجد يوما مكانته كأساس للعلم اللساني، وذلك في دراسة (تاريخية) تخصص للمراحل الكبرى والمحاولات الممتالية للحضارة الروحية».

المراجع المذكورة:

الرموز:

LL3, LL5 : Leçons de linguistique de G.G vol3, vol5 دروس في اللسانيات لغوستاف غيوم، الجزء 3 والجزء 5

PBA : ...(Le Problème de l'article) (مشكلة المقال...).

LSL : Langage et science du langage اللسان وعلم اللسان).

PLT : Principe de linguistique théorique (مبادئ في اللسانيات النظرية).

ADAM, Y., DOUAY, C., FRASER, T., JOLY, A., 1988 "La diachronie chez Gustave Guillaume".
in: La linguistique génétique, Histoire et théories (éd. A. Joly), Lille, Presses Universitaires de Lille, pp 207-230.
GUILLAUME, G., 1919: Le problème de l'article et sa solution dans la langue française, Paris, Hachette.
GUILLAUME, G., 1964: Langage et Science du langage, Québec et Paris, Presses de l'Université Laval et Nizet.
GUILLAUME, G., 1973: Principes de linguistique théorique de Gustave Guillaume, Québec et Paris, Presses de l'Université Laval et Klincksieck.
GUILLAUME, G., 1973: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1948-1949 C, vol.3 Québec et Lille, Presse de l'Université Laval et Klincksieck.
GUILLAUME, G., 1982: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1956-1957, vol. 5, Québec et Lille Presses de l'Université Laval et de Lille.
GUILLAUME, G., 1985: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1945-1946 c, vol.8, Québec et Lille, Presses de l'Université Laval et de Lille.
GUILLAUME, G., 1988: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1947-1948 C, vol. 8, Québec et Lille, Presses de l'Université Laval et de Lille.
GUILLAUME. G., 1989: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1964-1947 C, vol.9, Québec et Lille, Presses de l'Université Laval et de Lille.
GUILLAUME, G., 1990: Leçons de linguistique de Gustave Guillaume 1943-1944, A. vol. 10, Québec et Lille, Presses de l'Université Laval et de Lille.
WILMET, M., 1978: Gustave Guillaume et son école linguistique, Paris et Bruxelles, Nathan et Labor.